قصة فيلسوف عاشق

الدكتور طه حسين

لا أعلم أن الفلسفة تحظر الحب على أهلها . بل الذي أعلمه أن الفلسفة حب كلها . وليس اسمها إلا لفظاً من ألفاظ الحب : ولكن هذا الحب اذا احتل قلباً شغله عن كل شيء . واستأثر بكل ما فيه من قوة وعاطفة وهوى . ولم يدع من ذلك للحياة اليومية العاملة إلا شيئاً يسيراً جداً .

فالفلسفة حب الحكمة . وهذه الحكمة شديدة الغيرة . شديدة الأثرة . لا تحب الشركة ولا ترضاها . ولا تسمح لعشاقها بأن يصفوا بودهم شيئاً أو أحداً غيرها . فمن فعل ذلك أو شيئاً منه . فليس هو من الحكمة في شيء : وانما هو رجل مثلك ومثلي يغشى الأندية . ويضطرب في الشوارع . ويعيش مع الناس . وليس له حظ من المدينة الفاضلة التي يسكنها ويسيطر عليها عشاق الحكمة وحدهم .

لذلك كان أمر هذا الفيلسوف الذي أحدثك عنه عجباً من العجب . وفناً من هذه الفنون النادرة التي لا يظفر بها المؤرخون والقصاص إلا في مشقة وعسر . وإلا على أن تفرق بينها القرون الطويلة والعصور البعيدة . والذي أعرفه أن التاريخ لم يظفر قبل فيلسوف هذا العظيم بعاشق تدلهه الحكمة . وعبث بلبه جمال إلاهتها العليا ؛ ولكنه على ذلك استطاع أن يشغف بالاهة أخرى يشركها مع هذه الالاهة التي كان يصورها اليونان في صورة أثينا . تلك التي خرجت من رأس أبيها زوس . تامة الخلق . مكتملة الشباب ، فيها جمال فتان ؛ ولكن فتنه تغلب بقوتها لا برقتها .

لم يعرف التاريخ عاشقاً من عشاق أثينا استطاع كما استطاع فيلسوفنا العظيم ، أن يشرك معها امرأة من النساء في حبه وهيامه ، وأن يختصها من هذا الحب والهيام بمثل ما اختص به إلاهة الحكمة نفسها . وأن ينتهي به الأمر الى أن يخلط ابنة زوس بابنة باريس . ويتخذ منهما شخصاً واحداً يحبه ويقدسه . ويصوغ له ديناً قوياً خصباً . ويحاول أن يبسط سلطان هذا الدين على الانسانية كلها . أو على الانسانية المسيحية على أقل تقدير

أظنك قد عرفت هذا الفيلسوف . هو (أغست كونت) مؤسس الفلسفة الوضعية . وواضع علم الاجتماع . وصاحب السلطان العظيم على العقل الفرنسي ، ثم الأوروبي . ثم الامريكي . عصراً طويلا من القرن التاسع عشر . وأظنك قد عرفت هذه المرأة التي زاحمت الفلسفة في قلب (أغست كونت) فكادت تغلبها عليه ، أو غلبتها عليه بالفعل ؛ ثم أصبحت إلاهة للفيلسوف يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . وكما كان الوثنيون من اليونان يعبدون أثينا أو أرتميس . ثم أصبحت إلاهة لجماعة من تلاميذ الفيلسوف المتفرقين في أطراف الأرض . ثم أقيم لها معبد لايزال يحج اليه الى الآن في باريس ، وأقيمت لها معابد متفرقة في أمريكا الجنوبية . حيث لايزال للفيلسوف أتباع يشايعونه في القسم المتطرف من فلسفته .

هذه المرأة هي (كلوتلد دي فو) وأظنك تطمئن الآن وقد سمعت هذين الاسمين ، الى أني لا أخترع ولا أتبع الخيال . ولا أضع قصة ؛ وانما أكتب فصلا من فصول التاريخ . وليس من الضروري أن يلجأ الكاتب الى الخيال والاختراع . ليستطيع أن يمتع قراءه . وأن يؤثر في نفوسهم ويثير فيها هذه العواطف الحادة المختلفة التي تعبث بها حين تحس لذة أو ألماً . وحين تجد حباً أو بغضاً . وحين تشعر بحزن أو سرور . فقد تكون الحقائق الواقعة أبرع وأروع من أحسن القصص الخيالية وأبدعها . ولكني في حاجة الى أن أقدم اليك شخص هذين العاشقين قبل أن أحدثك عن عشقهما . وأقص عليك ما كان بينهما من غرام .

نشأ أغست كونت مع القرن التاسع عشر . ولم يكد

يتوسط العقد الثانى من عمره حتى ظهر تفوقه فى العلوم الرياضية، ولم تكد تتقدم به السن قليلا حتى عرف له هذا التفوق. وإذا هو حجة فى هذه العلوم. وإذا هو لا يقف عندها ولا يقتصر عليها: وإنما يفكر فى الصلة بينها وبين بقية أنواع المعرفة الإنسانية من جهة. ويفكر من جهة أخرى فى الحياة الأوربية المضطربة بعد الثورة والامبراطورية. يحاول أن يضع ترتيبا جديدا للعلوم. ويوفق الى ما يريد. ويحاول أن يجد نظاماً جديداً تقوم عليه الحياة الأوربية، فيوفق أيضا. ويصبح لهذين النوعين من التوفيق صاحب الفلسفة الوضعية ومؤسس علم الاجتماع.

ولكن فلسفته الوضعية هذه، كانت حديثة ثائرة لا تستأثر بالقلوب استئثاراً مطلقا. ولا تقطع على أهلها سبيل الحياة. فسمحت لعاشقها (أغست كونت) أن يعيش كما يعيش الناس. وأن يحب كما يحبون. فعاش وأحب. ولكن أى عيشة وأى حب؟ تركت الفلسفة قلبه حرا، وشغلت عقله كله. فاختار فى الحب بحسه وقلبه. ولم يختر بعقله. فيا بئس ما اختار! اختار امرأة جشمته الأهوال. وعلمته كيف تحتمل الآلام. وكيف يتجرع الانسان مرارة الغيظ: كانت هلوكا فاجرة. وخيل الى (أغست كونت) أنها نقية طاهرة، فأحبها وأظهرت له الحب، وخطبها فقبلت الخطبة، وتزوجها فقبلت الزواج. وما هو إلا وقت قصير حتى تبين من أمرها ما كره. فخاصمها وقاومته، وأنذرها فازدرته، وحاول أن يعاقبها فثارت به. وصبر الرجل وصابر حتى جن. وإذا هو يلقى نفسه فى النار، وإذا الشرطة تستنقذه وتدفعه الى المستشفى، فيقيم مع المجانين حينا ثم يفيق فيستأنف الفلسفة، ويستأنف التعليم، ويستأنف الحب والعذاب. ويجن مرة أخرى. ويفيق وتنقطع الصلة بينه وبين امرأته فى غير طلاق، لأن القوانين الفرنسية لم تكن تبيح الطلاق يومئذ. فنشاطه إذاً موقوف على الفلسفة والتعليم.

فى سنة ١٨٤٠ كان فيلسوفنا ممتحناً فى مدرسة الهندسة Polytechnique. وكان بين الشبان الذين تقدموا إليه فى هذا الامتحان غلام فى الخامسة عشرة من عمره، هو (مكسيمليان مارى). رآه الأستاذ الفيلسوف وسأله. فأحبه وأعجب به. ورأى أن الخير فى ألا يقبله هذا العام. فأجله سنة ثم قبله بعد ذلك، واتصلت بين الأستاذ وتلميذه محبة لم تلبث أن بلغت أقصاها. وإذا الفتى يميل إلى أستاذه وفلسفته وإلى الحرية خاصة. وإذا هو يستقيل من المدرسة ويتبع الأستاذ ويتلمذ له ويعيش من التعليم فى المدارس الحرة على كره من أبيه. وفى سنة ١٨٤٤ يتزوج هذا الفتى ويعيش مع امرأته فى بيت الأسرة، حيث يزوره الأستاذ من حين إلى حين. وهناك يلقى أخته (كلوتيلد) فلا يكاد يسمعها ويتحدث اليها، حتى تبتدىء بينه وبينها قصة الغرام.

وكانت كلوتيلد هذه فى الرابعة والعشرين من عمرها ولكن حياتها كانت مثقلة بالخطوب. كان أبوها رجلا من الطبقة الوسطى، عمل فى جيش الأمبراطورية وارتقى فى آخر عهد الأمبراطور إلى رتبة الكابتين، ثم سقطت الأمبراطورية فأحيل إلى الاستيداع. وعاش من مرتبه العسكرى الضئيل. وكانت أم الفتاة من أسرة شريفة من أهل اللورين. فنشأت (كلوتيلد) نشأة فيها بؤس وضيق: ولكن فيها احتفاظاً شديداً بتقاليد الطبقة الوسطى. ولم تكد تتجاوز الخامسة عشرة حتى زوجت من رجل يحمل اسما من أسماء الأشراف. ولكن حظه من الشرف كان قليلا، وهو (ميودى فو). اقترن بالفتاة وعين جابياً للضرائب. وقضى مع امرأته أعواماً لا هو بالسعيد ولا هو بالذى يمنح امرأته قسطاً من السعادة. ثم أصبح الناس ذات يوم، وإذا هو قد ذهب إلى سفر مجهول، وما هى إلا أن يبحث عنه ويفتش عن أمره، حتى يظهر أنه قد بدد أموال الدولة، وشيئاً كثيراً من أموال الناس فى اللعب، ثم هرب من فرنسا، إلى حيث لم يعرف من أمره شىء.

فظلت هذه المرأة الشابة معلقة. لا هى بالمتزوجة، ولا هى بالمطلقة، محزونة، بائسة، لا أمل لها فى الحياة. عادت إلى أسرتها تعيش بينها. وعكفت على نفسها تعيد وتبدى ما يجول فيها من خواطر الألم والحزن، ثم أخذت تكتب ما تحس وتقيد ما تجد، وإذا هى كاتبة لها حظ من أدب ونصيب من خيال. وكان جمالها معتدلا لا إسراف فيه. وكانت المحنة قد أفادتها رصانة ورزانة، وأفاضت على شخصها شيئاً من الحب يعطف النفوس عليها، وأجرت فى حديثها شيئاً من العذوبة الحلوة الهادئة، يحببها إلى القلوب.

فلما لقيها الفيلسوف فى بعض زيارته لأخيها، نظر اليها فلم تكد تبلغ نفسه، ونظرت هى إليه فأنكرته وأكبرته. أنكرت شكله الدميم، وصورته القبيحة، وخلقه المضطرب المرتبك، وأنكرت صوته الغليظ، وحديثه المتكلف. ولكنها

أعجبت بذكائه ، وأكبرت عقله وفطنته . وسكتت عنه وسكت عنها . وأتصلت الزيارات ، واتصل اللقاء . وأخذت نظرات الفيلسوف تستقر على الفتاة . وأخذت أذن الفتاة تطمئن إلى حديث الفيلسوف ، ولكن أحداً منهما لم يشعر بأن صاحبه قد وقع من نفسه موقعاً خاصاً .

كان الفيلسوف يزور الأسرة ثلاث مرات فى الاسبوع ، وكان يجد لذة ودعة فى هذه الزيارة ، كان يلقى ثلاثاً من النساء : أم تلميذه وكانت مشغوفة بالتصوير . تحاول دائماً أن تصور الفيلسوف ، وزوج تلميذه وكانت موسيقية تطربه بالتوقيع على البيانو ، وكلوتيد أخت تلميذه وكانت أديبة تحدثه عن الأدب وعن قصتها التى أنشأتها وسمتها « لوسى » ورمزت فيها لحياتها الخاصة ، وربما أنشدته شيئاً من شعرها . ولم يكن الفيلسوف يحب الأدب ولا يحفل بالشعر ، ولكنه كان يجد لذة فى أدب كلوتيد ، ويذوق الجمال فى شعرها وإن لم يكن هذا الشعر جميلا ، وإن لم يكن مستقيم الوزن أحياناً . وكان الفيلسوف يتحدث إلى كلوتيلد عن فلسفته الوضعية ، وعن مجلداته الخمسة التى ظهرت تذيع هذه الفلسفة فى الناس ، وعن أنصاره وخصومه ، وعن دروسه فى الفلك . وكانت الفتاة تعجب بهذا كله ، وإن لم تكن بطبعها مشغوفة بالفلسفة . وكان الفيلسوف يلتمس إرضاءها والتقرب إليها على غير شعور منه ، فيذكر لها براعة النساء فى الأدب والفلسفة . وكان هذا الحديث يروقها ويتملق كبرياءها ، وكانت الفتاة تكبر فى نفسها حين ترى الفيلسوف قد رآها لثقته أهلا . وذات يوم سقطت على الفيلسوف من السماء سعادة لم يكن يقدرها ولا ينتظرها ولا يحسب لها حساباً . زاره تلميذه ومعه أخته ، وكان الفيلسوف فى جماعة من العلماء ، وكان الحديث علمياً عميقاً . فابتهج الفيلسوف وأعجبت الفتاة ، وجلست تسمع فى إكبار وتثاؤب خفيف لحديث العلماء ، ثم همت تريد أن تنصرف فجمع الفيلسوف شجاعته كلها فى يديه واستأذن الفتاة فى أن يزورها فى بيتها الخاص ، فأذنت . هنالك بدأت الخصومة بين إلهة الفلسفة وإلهة الجمال . هنالك اضطرب « اغست كونت » بين العقل والقلب ، وبين التفكير والحب . هنالك أخذ الفيلسوف يسأل نفسه : ما قيمة هذا العلم الخالص الجاف ؟ وما قيمة هذا التفكير العميق الضخم ؟ ومتى كان الرجل رجلا بعقله دون قلبه ؟ ومتى كان الانسان انساناً بالتفكير دون الحب ؟ إن الانسان لا يستطيع أن يفكر فى كل وقت . ولكنه يستطيع أن يحب دائماً . وإذاً فقد تكون إلهة الفلسفة مسرفة فى الطغيان . وقد يكون من الممكن أن يتخذ « اغست كونت » رأسه معبداً لأثينا وقلبه معبداً لكلوتيلد .

وابتدأت زيارة الفيلسوف للفتاة فى بيتها . وإذا الحب يعلن ، وإذا الفيلسوف يلح فى حبه ويسلك إلى إقناع الفتاة بهذا الحب طرقاً ، منها الملتوى ، ومنها المستقيم . ولكن كلوتيلد لا تحب ولا تهوى ، إنما تعجب وتكبر . فهى ترده عنها فى رفق ، وتطلب إليه مودته دون حبه . فلا يكاد يعرف منها هذا حتى يضيق بنفسه وبالحياة ، وحتى تضيق به صحته ، ويعجز جسمه ورأسه عن احتمال هذا الخذلان ، فهو مريض يلجأ إلى السرير أياماً ، وهو مشفق أن يعاوده جنونه القديم . على انه يبل من مرضه ، ويحاول أن يجدد عهده بالفتاة . ولكنها تحظر عليه زيارتها فى بيتها ، وتعده باللقاء عند أمها مرتين فى الاسبوع . فلا يكفيه ذلك ، فتعده بلقائه مرة ثالثة . فلا يكفيه ذلك أيضاً ، وتتصل بينهما كتب فيها حوار حلو ملؤه الحنان حين يصدر عن الفتاة ، عنيف ممزوج ملؤه الفلسفة حين يصدر عن الأستاذ . ثم يستحيل هذا الحب فى نفس الفيلسوف إلى شكل جديد . فليس هو حباً عادياً كهذا الذى يكون بين الناس ، وإنما هو التقاء شخصين عظيمين قد خلقا ليلتقيا ثم ليتعاونا على إصلاح الانسانية وإسعادها . هى اذن قد خلقت له ولن يدعها ولن يتخذ غيرها زوجاً اذا ماتت زوجه الثانية . ثم تستحيل هذه العواطف ويستحيل هذا التفكير إلى فن من الفلسفة ، يضعه « اغست كونت » فى رسالة ، ويهدى الرسالة إلى الفتاة بهذا العنوان : « رسالة فلسفية فى التذكار الاجتماعى » . فى هذه الرسالة يتغير رأى « اغست كونت » فى المرأة ومكانتها الاجتماعية تغيراً تاماً . فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه « ستوارت ميل » فيرى أن ليس فى المرأة أمل ولا خير . أما الآن فهو يرى المرأة عنصراً أساسياً فى الاصلاح الاجتماعى الذى وقف نفسه عليه . وقد سرت الفتاة بهذه الهدية ، وكبرت فى نفسها

فزارت الفيلسوف مع أمها شاكرة له.

هنالك نشط الأمل وتجددت الحياة، واعتقد الفيلسوف أنه سعيد. واستأنف الحاحه على الفتاة، واستأنفت الفتاة مدافعته عن نفسها، واحتالت فى ذلك حتى زعمت له أنها قد أحبت من قبله فتى كان لحبها أهلا، وأحبها الفتى وسعد بهذا الحب؛ ولكن لم يجدا الى الزواج سبيلا. لأن الفتى كان معلقاً مثلها يخاصم امرأته ولا يستطيع لها فراقا. فيئست من الحب والسعادة، وأزمعت أن تنصرف عن لذات الحياة أبدا. ولكن الفيلسوف مغرم. والغرام لا يعرف اليأس، وهو اذا كان صحيحاً قويا قد يتحول ويتشكل، ولكنه لا يزول. وما الذى يمنع غرام كونت أن يتخذ شكلا فلسفيا ولو الى حين. لقد كان عود نفسه الحرمان منذ دهر طويل، فألغى القهوة منذ عشرين سنة، وترك التدخين منذ عشر سنين، ثم ألغى النبيذ ثم ألغى الفاكهة، ثم اتخذ ميزاناً يزن به ما يلائم حاجة جسمه من الطعام الخشن، وكان ربما يكتفى بالكسرة من الخبز يتبلغ بها، وهو يفكر فى اخوانه من الناس الذين قد لا يظفرون بمثلها. ومادام قد سيطر على نفسه الى هذا الحد، وعودها هذا الحرمان فى الطعام والشراب؟ فماله لا يزيد هذه السيطرة وماله لا يعود نفسه الحرمان لا فى الحب بل فى لذات الحب. إذاً فليبق حبه قويا حارا؛ ولكن ليظل هذا الحب نقيا طاهرا مجدبا من كل لذة، ولينتظر، وليجتنب اليأس. فكل شىء يدنى الفتاة منه. وكل شىء يدنيه من الفتاة. لقد أصبحت زميلة له منذ نشرت بعض الصحف السيارة لها قصتها التى وضعتها عن نفسها فأصبحت كاتبة مثله تتحدث الى الناس فى الأدب كما يتحدث هو الى الناس فى الفلسفة. هما إذاً زميلان. بل هما أكثر من زميلين؛ فقد أخذت الفتاة تدنو من مذهبه فى الفلسفة. وتحس ميلا الى آرائه الاجتماعية. وتكون منه مكان التلميذ والنصير. فليحب إذاً وليصبر. وفى أثناء ذلك كانت أم الفتاة تقول لها: لولا أن مسيو كونت شيخ دميم لقلت انه يتملقك ويدور حولك كما يدور العاشقون حول من يحبون. ومع ذلك فان من الحق عليه لك ولنفسه أن يفكر فى أن هذه الزيارات المتصلة المنظمة، لا تليق بك ولا به لأنها تخالف العرف المألوف أشد الخلاف.

«يتلى»

انظر مجلة القالين التى صدرت فى أول فبراير سنة ١٩٣٣

الوادى[1]

للشاعر الفرنسى لامرتين

ان قلبى المكلوم. المتقطع حبل رجائه حتى من الأمل، لن يزعج الأقدار بعد الآن بابتهالاته كما كان يزعجها من قبل.

ولكن أيها الوادى. يا مأواى فى أيام طفولتى، افسح لى مجالا — ولو ليوم واحد — فأعيش فى ربوعك فى انتظار المنون.

* * *

ها هى ذى الطريق الضيقة المؤدية الى ذلك الوادى المظلم:

هنا، فى أحضان هذه الروابى، تقوم أشجار تلك الغابات الكثيفة، فترسل ظلها على وجهى الشاحب، وتحوطنى بسكون مسكر

* * *

وهناك جدولان يجريان تحت «جسور (٢)» من الأعشاب المخضوضرة، فيرسمان فى انسيابهما تعاريج الوادى ومنحدراته. وتراهما بين الفينة والفينة، يمزجان تموجاتهما الفضية بألحان خريرهما العذبة، ثم يتلاشيان قريبا من المنبع، بعيداً عن أعين الناس.

* * *

وأيامى فى انسيابها أشبه بهذين الجدولين! فهى تمضى وتتلاشى دون أن يشعر بها الناس، ودون أن تحدث ذلك الخرير العذب! أما نفسى الكئيبة الملتاعة فهيهات أن تنعم بحياة يوم جميل من أيام حياتى.

* * *

ان خمائل الوادى الفينانة، بظلها المخيم، دفعتنى لقضاء النهار(٣) كله على ضفاف جداولها. فنفسى الحساسة تغفو على أنغام خرير المياه، كما يغفو الطفل فى مهده على صوت المناغاة.

* * *

هناك تحوطنى الطبيعة بأسوار من العشب الأخضر، وبأفق محدود، لكنه فسيح لناظرى.

١) نظم لامرتين هذه القطعة الشعرية الممتازة فى أواخر عام ١٨١٩، بعد أن نام فى الوادى الذى يعنيه Pérouillet سنة كاملة.

٢) أصل هذه الكلمة Ponts وقد احتفظنا بمناها الصريح.

٣) هنا يتذكر الشاعر يوما مشئوما كاد يموت فيه غرقا فى بحيرة صغيرة لولا نشاط أحد أصحابه إيمون فيرير.